مدخل

وجود نا بين القديم والجديد *

المرحلة الدقيقة الحرجة التى تجتازها أمتنا العربية اليوم ، تحتاج إلى أن نعبئ لها كل طاقاتنا من وعى الذات والنضال عن وجودنا الحر والطموح إلى حياة أعز وأفضل . ونحن أمة عريقة ، يمتد تاريخها إلى ماض موغل فى القدم ، وقد مرت بها على مسار ذلك الزمن الطويل ، عصور ازدهار وانحطاط ، سايرت يقظتها ووعيها أو جمودها وغفلتها . وهى لا تستطيع أن تحمى وجودها وتتابع سيرها على مراقى تقدمها ، ما لم تستقرئ ماضى خطواتها على درب الزمن ، وتدرك سر قوتها وبقائها ، وعوامل ضعفها وتخلفها .

وقضية تراثنا تتسع أبعادها زماناً فتستوعب الماضى والحاضر والمستقبل ، كما تَرحُب مكاناً فتتجاوز حدود وطننا العربى إلى العالم الإسلامى الكبير ، ثم إنها فى جوهرها قضية وجود ومصير بما تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا ، وما تضىء لنا من معالم الطريق وآفاق الطموح .

من هنا يأخذ موضوع « تراثنا » مكانه بين ما تُشغلون به من قضايانا الحيوية المعاصرة التى تتجه إليها دراستكم فى هذا المعهد الجدير بأن يتصدى لحمل أمانة التراث المشترك ، والدعوة إلى وضعه فى موضعه الصحيح من معركة الوجود والمصير .

وقد يعطى الموضوعَ مزيداً من الأهمية ، أنه مظنة أن يُحمل على الماضى وحده ويُعزل عن حياتنا الجديدة . فحين يتحدث المتحدثون عن عزلتنا الفكرية ، يتجهون بها مباشرة إلى ما يشكُون من قصور اتصالنا بجديد الفكر الغربى ، وقل فيهم من يشكو عزلتنا عن ماضينا نحن ، قريبه والبعيد .

وميدان الدراسات الجامعية ، يضج بأصداء الدعوة الملحة إلى تلبية حاجة العصر والاشتغال بمشكلات الحاضر وقضاياه ، ويُساء فهم هذه الدعوة فتتجه إلى

* هذا الكتاب ، ألقيته محاضرات على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، بمعهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة ١٩٦٨ .

الانفصام عن الماضى وتنكر العكوف على تراثه ، ويفوتها إدراكُ ما فى هذا الانفصام من خطرٍ على وجودنا اليوم وغداً . . .

والكُتاب والنقاد الذين يسيطرون على مراكز التوجيه للوجدان القومى والفكر العام ، مشغولون بالبضاعة الحاضرة ، يتحرجون من الالتفات إلى التراث ، معتذرين بأنهم إنما يعيشون يومهم ويعالجون مشكلات واقعه .

ويغيب عنهم أن حاضرنا مشحون بما يحمل من ميراث هذا الماضى الذى تكمن فى أعماقه جذور ذاتنا .

* * *

وحين يُذكَر التراث ، يتجه القصد منه غالباً، إلى نطاق محدود يحصره فى قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام . فهنا وهناك ، وعلى امتداد الوطن الكبير ، تُوجَّه عناية قلت أو كثرت ، إلى خدمة تراثنا وإحيائه ، فإذا كل ما ينشر منه أو أكثره ، لا يعدو ذخائر العربية : لغة وبلاغة وأدباً ، والإسلام : عقيدة وشريعة وفلسفة وتاريخاً . وننظر هنا وهناك وهنالك ، فإذا جمهرة المشتغلين من قومنا بتحقيق التراث ، هم من علماء العربية وفقهاء الإسلام والمتخصصين فى درس فلسفته وتاريخه .

ويُخشى أن يرسخ فينا هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا ، فيغيب عنا أول ما يغيب : أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ، ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم فى مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ، من طب وعقاقير وكيمياء ونبات ورياضيات وفلك . . . إلى آخر هذه العلوم التى لا تكاد تجد من يعنى بتراثها أو يحس حاجتنا إلى إعداد خبراء يشاركون علماء العربية والإسلام فى حمل الأمانة الصعبة التى يفرضها علينا وجودنا .

وإذا كانت مهمة التراث الكشف عن جذورنا وعناصر أصالتنا وأسرار ذاتنا ، لكى يقدم الأساس الراسخ الوطيد لوجودنا الحاضر والمستقبل ، فيجب أن يتأصل الإدراك بأن تراث الأمة لا يقف عند بداية التاريخ الإسلامى الذى جمعنا فيه اللواء الموحد ، وإنما يمتد مع ماضيها إلى ما قبل ذلك،موغلاً فى أعماق

الزمن : فماضى كلّ الشعوب التى أسلمت وتعربت ، هو من ماضى هذه الأمة ، وكل الحضارات الفكرية والمادية التى ازدهرت فى أرض وطننا ، هى فى الواقع التاريخى ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عرّفنا التاريخ من القرن الأول الهجرى أمةً واحدة .

وهذا الإدراك الواعى ، يصحح ما شاع فينا من أن مكاننا فى التاريخ الحضارى ، لم يأخذ دوراً قيادياً إلا فى العصر الوسيط حين كان الشرق الإسلامى مناراً للعلم والمعرفة والتمدن ، وأوربا غارقة فى ظلمات عصورها الوسطى . وهذا القول الشائع نشأ عن جهل أو غفلة عن الواقع التاريخى الذى يشهد بأن الأمة العربية فى العصر الإسلامى ، قد اندمجت فيها كل الشعوب التى تعربت ، فصار ماضيها كله ، من ماضى هذه الأمة ، كما صار تراثها الفكرى والحضارى ، ميراثاً لهذا الوطن الكبير .

ومن ثم لم يجز أن نقف بالتراث عند حد زمنى أو مكانى يحصره فى نصوص الأدب الجاهلى وذخائر علوم العربية والتاريخ الإسلامى ، بل تمتد أبعاده فتستوعب التراث القديم لكل أقطار وطننا ، على امتداد الزمان والمكان . . .

فيدخل فيه مثلُ نصوص البردى المصرى ، كما تدخل فيه النصوص التى كشفت عنها الحفريات الأثرية فى بابل وآشور والشام واليمن ، ومصر والمغرب الكبير . . .

من حيث هى مادة تاريخية لماضى هذه الأمة الواحدة ، يأخذ مكانه مع تراثها المشترك من العصر الجاهلى ، وتراثها الحى من التاريخ الإسلامى ، إذ تتماحى الحدود والفواصل وتلتقى فكراً وروحاً ومزاجاً ولساناً ووجداناً ، وتتحد وجوداً ومصيراً :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخوانى

* * *

وقد يبدو هذا المفهوم الشامل لتراثنا غريباً علينا ، لكنه لم يكن كذلك فى القرون الإسلامية الأولى ، حين كانت أمتنا فى أوج قوتها وازدهارها . لقد اتسع أفقها الرحب لهذا الشمول ، فلم يكن تراث العصر الجاهلى ، يعنى العرب الخلّص وحدهم ، دون الشعوب التى أسلمت وتعربت . ولم تقم حركة جمعه وتدوينه على

أيدى الذين ينتمون بأصولهم وأنسابهم إلى الجزيرة العربية وحدهم ، وإنما شارك فيها بالقدر الأكبر ، من دخلوا فى الإسلام وأظلهم لواؤه . كذلك لم تقف حركة إحياء التراث على آثار الجاهلية وعلوم العربية والإسلام ، بل نشطت إلى جانبها حركة تعريب التراث العلمى لشعوب الدولة الإسلامية الكبرى ، واتسعت فاستوعبت تراث اليونان ، عن وعى يدرك أن الفكر اليونانى لم يبدأ من نقطة الصفر ، وإنما سبقته حضارات شرقية رائدة عريقة أعطته ميراثها ، كحضارة وادى النيل ووادى الرافدين والهند . . .

وما من ريب فى أن هذا الشمول ، كان مظهراً لوعى الأمة لذاتها ، بقدر ما كان مهيئاً لدورها القيادى بالحضارة الإسلامية .

obeikandl.com